

حول الوسائل المفيدة للحياة السعيدة

للشيخ العلامة

عبد الرحمن بن ناصر السعدي

رحمه الله

شرح وتعليق

د. عبد العزيز بن داود الفايز

الناشر

دار طيبة الخضراء

مكة المكرمة - المدينة المنورة

جوال: ٠٥٤٤٥٩٩١٠٠



تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

خواطر

حول الوسائل المفيدة للحياة السعيدة

للشيخ لعلامة

عبد الرحمن بن ناصر السعدي

رحمه الله

شرح وتعليق

د. عبد العزيز بن داود الفايز

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الفايز، عبدالعزيز داود

خواطر حول الوسائل المفيدة للحياة السعيدة . / عبدالعزيز داود الفايز .- الرياض .- ١٤٢٩هـ ... ص، ١٧ × ٢٤ سم

ردمك: ٨-١-٠١-٨٠٣١-٦٠٣ - ٩٧٨

١- السعادة ٢ - الوعظ والإرشاد أ. العنوان

ديـــوي ٢١٢ ١٤٢٩/٤٠٦٩

رقم الإيداع : ١٤٢٩/٤٠٦٩

ردمك: ٨-١-٠١-٨٠٣١-٦٠٣ - ٩٧٨

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبيَّ بعده.

أما بعد: فقد أعدتُ طباعةَ هذه الرسالةِ بعد أن قمتُ بمراجعَتها وتدقيقها، والتي - ولله الحمد - وجدت لها قبولا؛ لما تحتويه من بيانِ الوسائل المفيدة للحياة السعيدة التي ذكرها الإمام عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله، فيجد قارئها مفاتيحَ السعادة بين يديه حاضرةً بإذن الله تعالى ، فأسأل الله العظيم رب العرش الكريم أن يجعلها من العلم النافع الذي لا ينقطع .

وقد أذنتُ لمن أراد طباعتها وتوزيعها احتسابًا لوجه الله تعالى، على أن يبلِغَنا بذلك وبدون تغييرٍ في الأصل.

أسأل الله تعالى أن يكتبنا من السعداء في الدنيا والآخرة، وأن يرزقَنا الرضا بقضائه وقدَره، وأن يجعل هذه الرسالة من أسباب تفريج الكربات وحصول السعادة والسكينة والطمأنينة لجميع من يطلع عليها من إخواني المسلمين إنه سميع مجيب.

عبد العزيز بن داود الفايز

مكة المكرمة ٢٠/ ٢/ ١٤٣١هـ

جوال ٠٠٩٦٦٥٠٠٠٥٠٠٨١

مقدّمة الطبعة الأولى

الحمد لله حمدًا طيبًا مباركًا فيه، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه.

وبعد: فإنّ الكتابَ الموسوم بـ«الوسائل المفيدة للحياة السعيدة» للإمام العلامة الشيخ عبد الرحمن السعدي -رحمه الله- من الكُتُبِ المهمَّة على صِغَر حجمه، فقد جمع الشيخ -رحمه الله- فيه مسائلَ عليها مَدارُ التوحيد والعقيدةِ التي بها سعادةُ البشريّة.

وكان سبب تأليفِ الشيخ لهذه الرسالة أنّه لمّا كان في لبنان للعلاج أحضَر له ابنُه محمّدٌ كتاب «دعِ القلقَ وابدأ الحياة» للمؤلف الأمريكي (ديل كارنيجي)، تناوَل في هذا الكتاب بعضَ أسباب القلق وعلاجَ ذلك، فرأى الشيخ -رحمه الله- أنّ في الإسلام من التوجيهاتِ والقواعدِ المستمَدَّة من الكتاب والسنّة ما هو كفيلٌ بسعادة الإنسان في الدنيا والآخرة، فوضع هذه الوسائلَ التي نستطيع القول: إنّها أشبه بالطّبيب النفسيّ، فهي تعالج القضايا النفسية المستعصية إذا أخذ بها الإنسان وطبَّقها تطبيقًا عمليًا، حتى إنَّ بعض أهل العلم ذكر أنّه قرأ تلك الرسالةَ أكثرَ من ستّين مرّة كلّما عرض له ما يكدِّر

خاطِره وأتت الأمور على ما لا يريد وحصل له ابتلاء ممّا كتبه الله على العباد من المرض وموتِ القريب والخسائر الماليّة التي كثُرت في هذه الأيّام فيما يسمّى بالأسهُم.

ولما رأيتُ الحاجَة ماسّةً إلى هذا الموضوع في هذا الزّمن الذي كثُرت فيه الفواجِعُ والمصائب كتبتُ تعليقًا على هذه الرسالةِ.

فأسأل الله تعالى أن ينفَعَ بها كما نفَعَ بالأصل، وأن يطرَحَ لها القبولَ، ويجعلها في ميزان الحسنات، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليمٍ.

د. عبد العزيز بن داود الفايز

مكة المكرّمة

قال الشيخ رحمه الله: فصل

١- وأعظمُ الأسباب لذلك وأصلُها وأساسُها هو: الإيمانُ والعمل الصالح، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

فأخبر تعالى ووعَد من جمع بين الإيمان والعمل الصالح بالحياة الطيِّبة في هذه الدار، وبالجزاء الحسَن في هذه الدار ودار القرار.

وسبب ذلك واضحٌ؛ فإنّ المؤمنين بالله الإيمانَ الصحيح المثمِر للعملِ الصالح المصلِح للقلوب والأخلاق والدنيا والآخرة مَعهم أصولٌ وأسُس يتلقَّون فيها جميعَ ما يرِد عليهم من أسبابِ السرور والابتهاج وأسباب القلَق والهمّ والأحزان.

يتلَقَّون المحابَّ والمسارَّ بقبول لها وشكر عليها واستعمالٍ لها فيما ينفَع، فإذا استعملوها على هذا الوجه أحدَث لهم من الابتهاج بها والطمَع في بقائها وبركتها ورجاءِ ثواب الشاكرين أمورًا عظيمَة تفوق بخيراتها وبركاتها هذه المسرات التي هي ثمراتها.

ويتلقَّون المكارهَ والمضارَّ والهمَّ والغمَّ بالمقاومة لما يمكنهم مقاومته، وتخفيف ما يمكنهم تخفيفه، والصبرِ الجميل لما ليس لهم عنه بدّ، وبذلك يحصل لهم من آثار المكاره من المقاومات النافعة والتجارب والقوة من الصبر واحتساب الأجر والثواب أمورٌ عظيمه تضمحلّ معها المكاره وتحلّ محلَّها المسارّ والآمال الطيبة والطمَع في فضل الله وثوابه.

كما عبَّر النبيّ ﷺ عن هذا في الحديث الصحيح حيث قال: **«عجبًا لأمر المؤمن، إنَّ أمره كلَّه خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن؛ إن أصابته سراءُ شكَرَ فكان خيرًا له، وإن أصابته ضرّاءُ صبرَ فكان خيرًا له»**[1].

فأخبر ﷺ أنَّ المؤمنَ يتضاعف غُنمه وخيره وثمرات أعماله في كلّ ما يطرقه من السرور والمكاره.

لهذا نجد اثنين تطرقهما نائبةٌ من نوائب الخير أو الشر، فيتفاوتان تفاوتًا عظيمًا في تلقّيها، وذلك تفاوتهما في الإيمان والعمل الصالح.

هذا الموصوف بهذين الوصفَين يتلقَّى الخير والشرَّ بما ذكرناه من الشكر والصبر وما يتبعهما، فيحدث له السرور والابتهاج وزوال الهمّ والغم والقلَق وضيق الصدر وشقاء الحياة، وتتمّ له الحياة الطيبة في هذه الدار.

---

(١) رواه مسلم (٢٩٩٩) من حديث صهيب ﷺ.

والآخرُ يتلقَّى المحابَّ بأشرٍ وبطَرٍ وطغيان، فتنحرف أخلاقُه، ويتلقاها كما تتلقاها البهائمُ بجشعٍ وهلَع، ومع ذلك فإنه غير مستريح القلب، بل مشتَّت من جهاتٍ عديدة، مشتَّت من جهة خوفه من زوال محبوباته، ومن كثرة المعارضات الناشئة عنها غالبًا، ومن جهة أنَّ النفوس لا تقِف عند حدٍّ، بل لا تزال متشوِّقة لأمورٍ أخرى قد تحصُل وقد لا تحصل، وإن حصلت على الفرضِ والتقدير فهو أيضًا قلِق من الجهاتِ المذكورة.

ويتلقَّى المكاره بقلق وجزع وخوفٍ وتضجّر، فلا تسأل عما يحدث له من شقاءِ الحياة، ومنَ الأمراض الفكرية والعصبية، ومن الخوف الذي قد يصل إلى أسوأ الحالات وأفظع المزعجات؛ لأنه لا يرجو ثوابًا، ولا صبرَ عنده يُسلّيه ويهوِّن عليه، وكلُّ هذا مشاهَدٌ بالتجربة.

ومثل واحد من هذا النوع إذا تدبَّرته ونزلته على أحوال الناس رأيتَ الفرقَ العظيم بين المؤمن العامل بمقتضى إيمانه وبين من لم يكن كذلك، وهو أنَّ الدين يحثّ غاية الحثِّ على القناعة برزق الله وبما آتى العبادَ مِن فضله وكرمِه المتنوِّع.

فالمؤمن إذا ابتلِيَ بمرضٍ أو فقر أو نحوِه من الأعراض التي كلُّ أحدٍ عُرضة لها فإنّه بإيمانه وبما عنده من القناعة والرضا بما قسَم الله له تجده قريرَ العين، لا يتطلَّب بقلبه أمرًا لم يقدَّر له، ينظُر إلى من هو دونه ولا ينظر إلى من

هو فوقه، وربما زادت بهجته وسروره وراحته على مَن هو متحصّل على جميع المطالب الدنيويّة إذا لم يؤتَ القناعة.

كما تجد هذا الذي ليس عنده عمَل بمقتضى الإيمان إذا ابتلي بشيءٍ من الفقر أو فقدِ بعض المطالب الدنيويّة تجده في غاية التعاسة والشقاء.

ومثل آخر: إذا حدثت أسباب الخوف وألَمّت بالإنسان المزعِجات تجده صحيحَ الإيمان ثابت القلب مطمئن النفس متمكّنًا من تدبيره وتسييره لهذا الأمر الذي دهمه بما هو في وسعه من فكرٍ وقول وعمل، قد وطّن نفسه لهذا المزعج الملمّ، وهذه أحوال تريح الإنسانَ وتثبّت فؤاده.

كما تجد فاقدَ الإيمان بعكسِ هذه الحال: إذا وقعَت المخاوفُ انزعج لها ضميره، وتوتّرت أعصابه، وتشتّت أفكاره، وداخلَه الخوفُ والرعب، واجتمع عليه الخوف الخارجيّ والقلق الباطنيّ الذي لا يمكن التعبير عن كنهه.

وهذا النوع من الناس إن لم يحصل لهم بعضُ الأسباب الطبيعيّة التي تحتاج إلى تمرين كثيرٍ انهارت قواهم وتوتّرت أعصابهم، وذلك لفَقد الإيمان الذي يحمِل على الصبرِ، خصوصا في المحال الحرجةِ والأحوال المحزِنة المزعجة.

فالبارّ والفاجر والمؤمن والكافر يشتركان في جلبِ الشجاعة الاكتسابية وفي الغريزة التي تلطّف المخاوف وتهوّنها، ولكن يتميّز المؤمن بقوّة إيمانه وصبره وتوكُّله على الله واعتماده عليه واحتسابه لثوابه؛ أمورا تزداد بها شجاعته وتخفِّف عنه وطأة الخوف وتهوّن عليه المصاعب، كما قال تعالى: ﴿إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤]، ويحصل لهم من معونة الله ومعينه الخاصّ ومدَده ما يبعثر المخاوفَ، قال تعالى: ﴿وَاصْبِرُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

التعليق:

هذا كلام في غاية النفاسَة، حيث تحدّث الشيخ -رحمه الله تعالى- عن أثر الإيمان في حياةِ المسلم، وما يحصل له به من الاستقرار والسعادة والاطمئنان في السراء والضراء، فهو يتقلّب بين عبادتين عظيمتين:

العبادة الأولى: عبادة الشكر:

فإذا أكرمه ربُّه بنعمة من نعمه التي لا تحصى ولا تعدّ سخّرها في طاعة الله جلّ وعلا، وشكر الله عليها بقلبه بأن يعتقد ويجزم أنّ ما به من نعمة فمن الله

وحده، ويشكر بلسانه بأن يلهج بالحمد والثناء على الله بما هو أهله، ويشكر بجوارحه بالعمل في طاعة المنعِم، يفعل ذلك بكل سرور وسعادة.

ولنأخذ على ذلك مثالا:

إذا فتح الله على العبد بالمال فهو يجزم أنّ الذي بسَط عليه الرزق هو الله سبحانه وتعالى، ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الشورى: ١٢]، ويحمد ربَّه بلسانه ويشكره على هذه النعمة، ويسأل ربَّه أن يرزقه شكرها بالقول والعمل، ويخرِج زكاةَ ماله المقدَّرة شرعًا في وقتها المحدد، وينفق في وجوهِ البرّ والإحسان، ويساهِم في المشاريع الخيريّة، ويتفقَّد الفقراء والمحتاجين والأيتام والأرامل؛ لأنّه يعلم أنّ هذا المالَ مالُ الله سبحانه، وأنّ هذه الصّدقة ترفع درجتَه وتعلي منزلته، وهو في ظل صدقته يوم القيامة.

وإيمانه يهديه أيضًا إلى أن الله سوف يخلف عليه خيرًا مما أنفق، مصداقًا لقوله: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩]. وهذا الإنفاق والبذل يجلب له الفرح والسرور والسعادة.

العبادة الثانية: عبادة الصبر:

فإذا قدّر عليه ما يكرهه في نفسه من المرض والفقر والخوف والإيذاء من الخلق فإنَّ إيمانه يرسم له منهجًا سليمًا يجعله يتعامَل مع هذا الحدَث بكلّ

سكينةٍ وطمأنينة، بل وسعادة وهناءٍ، فهو يؤمن بالقدَر خيرِه وشره، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وأن كلَّ شيء بتقدير الله تعالى، فهو العليم الحكيم الذي سبق علمه كل شيء، ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ﴾ [التغابن: ١١].

فهو يؤمن بأنَّ العليم قد فرغ من تقدير الأمورِ قبل أن يخلق السماوات والأرضَ بخمسين ألف سنة، وأن تضجُّرَه لا يغيِّر من تقدير الله شيئًا، ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٢٢ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٢، ٢٣].

ويؤمن أيضًا أن الله لا يقدِّر شيئا عبثًا، وأنَّ كلَّ تقدير لله فيه رحمة وحكمة وعدل، ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩]، ويقول المصطفى ﷺ: «عجِبتُ للمؤمن؛ إنَّ الله لم يقضِ قضاءً

إلا كان خيرًا له»[1]، فهو يجزِم أنَّ تقدير الله واختيارَه خيرٌ من اختيار العبدِ لنفسه؛ لأنّه سبحانه أرحم به من الوالدة بولدها.

ويؤمن أنَّ الله ابتلاه لا ليضرَّ به، بل ليرفع درجتَه ويعلي منزلته ويكفِّر سيئاته ويسمع تضرُّعه وانكساره بين يديه؛ لأنَّ الإنسان لا ينكسِر الانكسار التامّ إلا إذا نزلت به نازلة أو حلَّت به كارثة أو كان لديه حاجة، والانكسار من أعظَم مقاماتِ العبوديّة لله سبحانه وتعالى.

وإيمانه يدلّه على أنّ هذا الابتلاءَ من محبّة الله له، يقول النبيّ ﷺ: «**إنَّ الله إذا أحبَّ قومًا ابتلاهم، فمن رضِي فله الرضا، ومن سخط فله السّخط**»[2]؛ ولذا ابتلى الله الأنبياءَ والرسل -عليهم الصلاة والسلام- بأنواع من الابتلاءات، مثل ما حصَل لنبيِّنا محمّد ﷺ.

ويرشدُه إيمانه كذلك إلى الصبر والاحتساب، يقول الله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾ [الزمر: ١٠]، ويقول: ﴿**وَٱللَّهُ**

---

(١) رواه أحمد (٣/ ١١٧) وأبو يعلى (٤٢١٧) من حديث أنس ﷺ، وصححه ابن حبان (٧٢٨)، وهو في «صحيح الجامع» (٣٩٨٥).

(٢) رواه الترمذي (٢٣٩٦) وابن ماجه (٤٠٣١) من حديث أنس ﷺ، وقال الترمذي: «حديث حسن غريب من هذا الوجه»، وهو في «صحيح الترغيب» (٣٤٠٧).

مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، ويقول: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

فإيمانه يجعله يعتقِد أنّه إذا أصيبَ بمصيبة فإنّ أمامَه أمورًا أربعة:

الأول: التضجّر والتسخّط، وهذا محرّم لا يجوز.

الثاني: الصبر، وفيه أكثرُ من تسعين آية.

الثالث: الرضا وهو درجَة أعلى من الصبر، وقد عدَّد له ابن القيِّم في «مدارج السالكين» أكثرَ من ستين فائدَة من فوائد الرضا، ويكفي فيه أن من رضي عن الله في تقديره رضي الله عنه، ورضا الله أعلى من الجنّة.

الرابع: الشكر على المصيبَة، وقد يقول قائل: كيف يشكر على المصيبة؟! نقول: إذا علِم العبدُ أنها من عند الله وأنها من محبّة الله وانتظر الفرجَ والأجر من الله شكَرَ الله عليها.

فالإيمان الذي رسخ في قلبه جعَله يتعامل مع المصيبة بكلِّ فرحٍ وسرور وسعادةٍ.

أمّا الآخر فهو يتعامل مع النّعمة بالأشر والبطر، ويستغلها في غير محلِّها، ويبارز الله بالمعاصي والطّغيان وارتكاب الآثام، ويأكل ويشرب بمال الله ما حرّم الله، ويتعامل بالربا، ويمنع حقَّ المال من الزكاةِ والصدقة والبرّ، فهذا ماله -والعياذ بالله- يكون حسرةً ووبالا عليه في الدنيا والآخرة، فكم رأينا

من أصحاب الأموال من كان ماله مصدرَ شقاء وعناءٍ وهمّ وقلق؛ لأنه لم يصرفه ويسخّره فيما أمر به ربّه سبحانه وتعالى؛ كما هو حال قارون؛ لما أنعَم الله عليه طغى وتكبّر وتجبر وقال: إنما أوتيته على علم عندي.

فبعض الناس إذا أنعَم الله عليه بالمال يعرض عن طاعة الله ويرتكب معصيته، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧]، ونجد أنَّ همَّه وشغله وتفكيره في ماله: كيف يحافظ عليه؟ وكيف ينميه بأي طريقة ولو كان من طريق الربا والعياذ بالله؟ فهذا الصنف من الناسِ ماله مصدَرُ شقاءٍ وتعاسة عليه في الدارين، قال ﷺ: «**لا تزول قدَمَا عبدٍ يومَ القيامةِ حتى يُسأل عن عمره: فيم أفناه؟ وعن علمه: فيم فعل؟ وعن ماله: من أين اكتسبه؟ وفيم أنفقه؟ وعن جِسمه فيم أبلاه**»[1].

ونجد أيضًا حاله في الابتلاء أنه يتضجر ويتسخَّط قضاءَ الله بقوله وبفعله؛ ولذا تتغير أحواله وأكلُه ونومُه وشربه، ويصاب بالقلق والاكتئاب،

---

(١) رواه الترمذي (٢٤١٧) والدارمي (٥٣٧) وأبو يعلى (٧٤٣٤) من حديث أبي برزة الأسلمي ﷺ، قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح»، وهو في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٢٦).

وربما راجَع العيادات النفسيّة لأيّ نازلة ومصيبة، وربما -والعياذ بالله- فكر في الانتحار والتخلُّص من الحياة.

جعلنا الله وإياكم من المؤمنين الذين إذا أُعطوا شَكَروا، وإذا ابتُلُوا صبَروا، وإذا أذنبوا استَغفَروا، وهذه مقوِّمات السعادة.

****

قال الشيخ رحمه الله: فصل

٢- ومن الأسباب التي تزيل الهمَّ والغم والقلق: الإحسانُ إلى الخلق بالقول والفعل وأنواع المعروف، وكلُّه خير وإحسان، وبها يدفع الله عن البرّ والفاجر الهموم والغموم بحسبها، ولكن للمؤمن منها أكملُ الحظ والنصيب، ويتميّز بأن إحسانه صادِر عن إخلاصٍ واحتساب لثوابه، فيهوّن الله عليه بذلَ المعروف لما يرجوه من الخير، ويدفع عنه المكارهَ بإخلاصه واحتسابه، قال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

فأخبر الله أنَّ هذه الأمورَ كلَّها خير ممن صدرت منه، والخير يجلب الخير ويدفع الشر، وأنَّ المؤمن المحتسب يؤتيه الله أجرًا عظيمًا، ومن جملة الأجر العظيم زوالُ الهمّ والغمّ والأكدار ونحوها.

التعليق:

يذكر الشيخ -رحمه الله وأسكنه فسيح جناته- أنَّ من أسباب السعادة والطمأنينة والسكينة الإحسانَ إلى الخلق بأي نوع من أنواع الإحسان القولي والفعلي، كيف لا والرسول ﷺ يقول: «**والله في عون العبد ما كان العبد في عونِ أخيه**»[1]؟!

ومن أعظم الإحسان الجالب للسعادة في الدارين: الإحسان إلى الوالدين، فهو من أسباب التوفيق والنجاح والسعادة، فإذا أحسن الإنسان إلى والديه فإنَّ الله يجعل له في الدنيا أسبابَ السكينة والطمأنينة، ويذهب عنه الهموم والأحزان، مع ما يدَّخره له يوم القيامة من الأجر، وذلك أنَّ رضا الله في رضا الوالدين، وسخطه في سخط الوالدين، وأنَّ دعوة الوالدين لولَدهما وعليه مستجابة، فإذا شعر بالكآبة والهمّ والحزن فليبادر إلى الإحسان إلى الوالدين، وليراجع نفسه في ذلك.

---

(١) رواه مسلم (٢٦٩٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

ومن أنواع الإحسان الجالب للسعادة: الإحسانُ إلى الفقراء والمحتاجين والأيتام والأرامل، وإصلاح ذات البين، وجمع القلوب وتوحيد الكلمة.

ومن أنواع الإحسان: الإحسان إلى الزوجة والأولاد والأقارب والأصدقاء والجيران وعموم المسلمين، بل حتى إلى الحيوانات، وانظر إلى قصّة المرأة البغي من بغايا بني إسرائيل التي سقَت كلبًا فغفر الله لها[1]، وكل معروفٍ صنعتَه إلى الناس فهو جالبٌ للسعادة وطارِد للهمّ والغمّ والحزن، قال ﷺ: «**صنائع المعروف تقِي مصارعَ السوء**»[2].

****

قال الشيخ رحمه الله: فصل

٣- ومن أسباب دفعِ القلق الناشئ عن توتّر الأعصاب واشتغال القلب ببعض المكدِّرات: الاشتغال بعمل من الأعمال أو عِلم من العلوم النافعة؛ فإنها تلهي القلب عن اشتغاله بذلك الأمر الذي أقلَقه، وربما نسي بسبب ذلك الأسبابَ التي أوجبت له الهمَّ والغمَّ، ففرحت نفسه وازداد نشاطه.

---

(١) رواها البخاري (٣٢٨٠) ومسلم (٢٢٤٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) رواه الطبراني في الكبير (٨/ ٢٦١) من حديث أبي أمامة ﷺ، وهو في «صحيح الترغيب والترهيب» (٨٨٩).

وهذا السبب أيضًا مشترك بين المؤمنِ وغيره، ولكنّ المؤمن يمتاز بإيمانه وإخلاصه واحتسابه في اشتغاله بذلك العلم الذي يتعلَّمه أو يعلِّمه، وعمل الخير الذي يعمله؛ إن كان عبادة فهو عبادة، وإن كان شغلا دنيويًا أو عادة دنيوية أصحبها النية الصالحة وقصَد الاستعانة بذلك على طاعة الله.

فلذلك أثرُه الفعال في دفع الهم والغموم والأحزان؛ فكم من إنسان ابتلي بالقلق وملازمة الأكدار فحلّت به الأمراض المتنوّعة فصار دواؤه الناجع نسيانه السبب الذي كدره وأقلقه، واشتغاله بعمل من مهماته.

وينبغي أن يكون الشغلُ الذي يشتغل فيه مما تأنس به النفس وتشتاقه؛ فإنّ هذا أدعى لحصول هذا المقصود النافع، والله أعلم.

التعليق:

يقول علماء النفس: اعمل وأشغل نفسك واترك الفراغ ودعِ الكسل والخمول؛ فإن ذلك يساعد بنسبة ٥٠٪ على علاجِ الهمّ والحزن والاكتئاب.

فالمسلم مطالب بالعمل والجدّ والاجتهاد، وليس لديه وقت فراغ، فحياته كلها عبادة: نومه وأكله وشربه، وهذا مما يميّزه عن غيره أنه يحتسب في كل شيء، حتى المباحات تكون عنده عبادات بالنية الصادقة.

فعلى المسلم أن يشغَل جميعَ وقته بما يعود عليه بالنفع في الدين والدنيا، وأن لا يدَع مجالا للفراغ، لا سيما إذا نزل به ما يقلِقه، فإنَّ الشيطان يتسلَّط

عليه بالأفكار المزعِجة، ويكدِّر عليه صفوه، ويجعله يميل إلى العزلة والفراغ، ويورد عليه الخواطر المخيفة، فالحذر الحذر من الاستسلام له.

فالفراغ والتمادي في التفكير من أعظم جالبات الهموم والأحزان؛ لذا على الإنسان أن يشغَل نفسَه بما ينفعه، كأن يحفظ القرآن، يقرأ كتابًا، يصل رحمه، يبرّ والديه، يشارك في المؤسّسات والجمعيّات الخيرية والدعويّة، يحضر المناسباتِ الاجتماعيّة المفيدة، فهذا كلّه من أسبابِ السعادة والسكينة والانصراف والانشغال عما يزعجه ويقلقه.

****

قال الشيخ رحمه الله: فصل

٤- **ومما يُدفع به الهمُّ والقلق:** اجتماعُ الفكر كلِّه على الاهتمام بعمل اليوم والحاضر، وقطعُه عن الاهتمام في الوقت المستقبل وعن الحزن على الوقت الماضي، ولهذا استعاذ النبيّ ﷺ من الهمّ والحزن، فالحزن على الأمور الماضية التي لا يمكن ردّها ولا استدراكها، والهمّ الذي يحدث بسبب الخوف في المستقبل، فيكون العبد ابنَ يومه؛ يجمع جدَّه واجتهاده في إصلاح يومه ووقته الحاضر، فإنَّ جمعَ القلب على ذلك يوجب تكميل الأعمال، ويتسلى به العبد عن الهمّ والحزن.

والنبي ﷺ إذا دعا بدعاء أو أرشد أمته إلى دعاء فهو يحثّ -مع الاستعانة بالله سبحانه وتعالى والطمع في فضله- على الجد والاجتهاد في التحقّق لحصول ما يدعو بحصوله والتخلي عما كان يدعو لدفعه؛ لأن الدعاء مقارِن للعمل.

فالعبد يجتهِد فيما ينفعه في الدين والدنيا، ويسأل ربَّه نجاح مقصده، ويستعينه على ذلك، كما قال النبيُّ ﷺ: «**احرص على ما ينفعك، واستعِن بالله، ولا تعجز، وإن أصابَك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإنَّ لو تفتح عمَل الشيطان**»[1].

فجمع النبيُّ ﷺ بين الأمر بالحرص على الأمور النافعة في كل حال والاستعانة بالله وعدم الانقياد للعجز الذي هو الكسل الضار، وبين الاستسلام للأمور الماضية النافذة ومشاهدة قضاء الله وقدره.

وجعل الأمور قسمين:

قسمًا يمكن للعبد السعي في تحصيله أو تحصيل ما يمكن منه أو دفعه أو تخفيفه، فهذا يبدي فيه العبد مجهوده ويستعين بمعبوده.

وقسمًا لا يمكن فيه ذلك؛ فهذا يطمئنّ له العبد ويرضى ويسلِّم.

ولا ريب أن مراعاة هذا الأصل سبب للسرور وزوال الهم والغم.

---

(١) رواه مسلم (٢٦٦٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

التعليق:

يقول رسول الهدى ﷺ: **«من أصبح منكم آمنًا في سربه، معافى في جسده، عنده قوتُ يومه؛ فكأنما حيزت له الدنيا»**[1].

هذا الحديث العظيم من أعظم أسبابِ السعادة والسكينة لو طبقه الناس في حياتهم اليومية، فكثير من الناس يصبح معافى في بدنه وعنده قوتُ سنَةَ، بل سنوات، ويكون آمنًا في سربه، ومع ذلك هو في همّ وغم، لماذا؟ لأنه خالف المنهجَ القويم والتوجيهَ النبويَّ الكريم، فهو إما أنه يفكّر في أشياء ماضية أو أشياء مستقبلية، وجلُّ الأمراض النفسيّة الموجودة الآن بسبَب هذا الخلَل النفسيِّ الكبير.

فعلى المسلِم أن يربّي ويجاهد نفسه على تطبيق هذا الحديث في حياته، ويترك الأشياء الماضية؛ لأن التفكير فيها لا يغير شيئا، بل يضرّ الإنسان نفسَه؛ ولذا وضعَ الحبيب ﷺ علاجًا ناجعًا بقوله: **«فلا تقل: لو أني فعلتُ كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإنَّ لو تفتح عمَل الشيطان»**[2].

---

(١) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٣٠٠)، والترمذي (٢٣٤٦) وابن ماجه (٤١٤١) من حديث عبيد الله بن محصن الخطمي ﷺ، قال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب»، وهو في «صحيح الترغيب والترهيب» (٨٣٣).

(٢) تقدّم تخريجه.

فإذا خالف الإنسانُ هذا الحديثَ فتح على نفسه بابًا للشيطان، يدخل عليه ويشاركه في التفكير وجلب الأحزان.

وعليك -أخي المؤمن- أيضًا أن تترك التفكيرَ في الأشياء المستقبلية بعد فِعل الأسباب التي أباحها الله سبحانه وتعالى، فأحسِن الظنَّ بالله، وتفاءل بأنّ الله سيتولاك، ويصلح شأنك، ويسعدك في دنياك وآخرتك، ويحقِّق لك ما تريده في الدارين، ويحصل لك ذلك بإذن الله.

****

قال الشيخ رحمه الله: فصل

٥- ومن أكبر الأسباب لانشراح الصدر وطمأنينته: الإكثارُ من ذكر الله؛ فإن لذلك تأثيرًا عجيبًا في انشراح الصّدر وطمأنينته وزوال همّه وغمه.

التعليق:

قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، فلذكر الله أثرٌ عظيم في حصولِ هذا المطلوب؛ لخاصيته ولما يرجوه العبد من ثوابه وأجره.

ذِكرُ الله سبحانه وتعالى من أعظم أسباب انشراح الصدر ونزول السكينة وحصول الطمأنينة وجلب السعادة والراحة النفسية، ومن أعظم أنواع الذكر

قراءةُ القرآن بتدبّر وتأمّل، قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]، فهو شفاء من الشرك والشك والانحراف والهموم والأحزان وسائر الأمراض، كيف لا وفيه ما يحتاج إليه الإنسان في دينه ودنياه ومعاشِه ومعاده، وفيه تسليةٌ لأهلِ المصائب والأمراض، وفيه بشائر لأهل الإيمان، وفيه أخبار البشرية منذ أن أهبط الله آدم إلى الأرض إلى أن تقوم الساعة، وما سيكون يوم القيامة، وفيه بيان لعاقبة المتقين وعاقبة المعرضين في الدارين.

فإذا نزل بالإنسان نازلة نظر إلى سِيَر الأنبياء في القرآن، وما حصل لهم من الابتلاء والامتحان، وهم أحبّ الخلق إلى الله، وكيف صبروا وكانت العاقبة لهم في الدنيا والآخرة وهكذا...

ومن أهم أنواع الذكر أدعية الكرب والهمّ، فقد دخل رسول الله ﷺ ذات يوم المسجدَ، فإذا هو برجلٍ من الأنصار يقال له: أبو أمامة، فقال: «يا أبا أمامة، ما لي أراك جالسًا في المسجد في غير وقتِ الصلاة؟!» قال: همومٌ لزمتني وديون يا رسول الله، قال: «أفلا أعلّمُك كلامًا إذا أنتَ قُلتَه أذهَبَ الله عز وجلّ همَّك وقضى عنك دينك؟» قال: بلى يا رسول الله، قال: «قل إذا أصبحت وإذا أمسيت: اللّهمّ إني أعوذ بك من الهمّ والحزن، وأعوذ بك من

العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبةِ الدين وقهر الرجال»، قال: ففعلتُ ذلك فأذهب الله عز وجل همِّي وقضَى عنّي ديني[1]... إلى غير ذلك من الأدعية المعروفة.

ومِن نعَم الله تعالى علينا أن جعل الذكر من أعظم القربات والطاعات عنده، وهو من أيسر الأشياء على الإنسان، فهو يذكر ربَّه في سيارته ومكتبه وفراشه، وكان النبيّ ﷺ يذكر ربَّه في كل أحيانه، ولا يمنعه إلا قضاء الحاجة، فالذكر حبيبٌ إلى الرحمن، ثقيل في الميزان، خفيف على اللسان، جالب للطمأنينة والسكينة.

****

قال الشيخ رحمه الله: فصل

٦- وكذلك التحدُّث بنعم الله الظاهرة والباطنة، فإن معرفتها والتحدّث بها يدفع الله به الهمّ والغمّ، ويحثّ العبد على الشكر الذي هو أرفعُ المراتب وأعلاها، حتى ولو كان العبد في حالة فقر أو مرض أو غيرهما من أنواع البلايا، فإنه إذا قابل بين نِعَم الله عليه التي لا يحصى لها عدًّا ولا حسابًا وبين ما

---

(١) رواه أبو داود (١٥٥٥) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، وهو في «ضعيف السنن» (٣٣٣).

أصابه من مكروه لم يكن للمكروه إلى النعم نسبة، بل المكروه والمصائب إذا ابتلى الله بها العبدَ وأدى فيها وظيفةَ الصبر والرضا والتسليم هانت وطأتها وخفَّ وقعُها، وكان تأميل العبد لأجرها وثوابها والتعبّد لله بالقيام بوظيفة الصبر والرضا يدَع الأشياء المُرّة حلوة، فتنسيه حلاوةُ أجرها مرارةَ صبرها.

التعليق:

نصفُ العبادةِ شكر الله تعالى على نِعَمه التي لا تُعَدّ ولا تحصى، قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، ظلوم لنفسه، كفّار بِنِعَم الله.

فعلى المسلم أن يشكرَ الله تعالى بقلبه بأن يعترِف ويعتقِد أنَّ ما به من نعمة فمن الله وحده، ويشكُر بجوارحه بالعمل بها في طاعة الله، فلا ينظر إلا إلى ما أحلَّ الله، ولا يستمع إلا إلى ما أحلَّ الله ونحو ذلك، ويشكر بلسانه بأن يكثر من الحمدِ والثناء على الله بما هو أهله، فإن الله يرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها، ويشرب الشربةَ فيحمده عليها، وهذا مقام في العبادة رفيع ومنزلة عالية جالبة للسرور والسعادة، فإذا وسوس له الشيطان وعظَّم عنده ما فاته من الدنيا فعليه أن يعقدَ مقارنةً يسيرةً بين نِعَم الله العظيمة وبين ما فاته أو نزل به من المصائب، وبهذا لا يسعُه إلا أن يلهَج بالحمد والثناء على الله.

وهذا المصطفى ﷺ يقول مخاطبًا ربَّه تعالى: «**لا أحصِي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك**»[1]، فهو يعترِف -صلوات ربي وسلامه عليه- وهو الشاكر لنِعَم ربّه أنه لا يستطيع أن يثني على الله ويشكره حقَّ شكره، فكيف بنا نحن؟! ولو قام الإنسان بوظيفة الشكرِ لله تعالى لشعر بسعادةٍ غامرة، فعوِّد نفسك -أخي المسلم- على كثرة الحمد والشكر للمنعِم المتفضل.

****

قال الشيخ رحمه الله: فصل

٧- ومن أنفع الأشياء في هذا الموضع استعمالُ ما أرشد إليه النبيُّ ﷺ في الحديث الصحيح حيث قال: «**انظُروا إلى مَن أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله**»[2].

فإن العبد إذا نصب بين عينيه هذا الملحظ الجليل رآه يفوق قطعًا كثيرًا من الخلقِ في العافية وتوابِعِها، وفي الرزق وتوابعه، مهما بلغت به الحال، فيزول قلقُه وهمّه وغمّه، ويزداد سروره واغتباطه بنعم الله التي فاق بها غيرَه ممن هو دونه فيها.

---

(١) رواه مسلم (٤٨٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) رواه مسلم (٢٩٦٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

وكلما طال تأمُّلُ العبد لِنِعم الله الظاهرة والباطنة الدينية والدنيوية رأى ربَّه قد أعطاه خيرًا كثيرًا، ودفع عنه شرورًا متعدِّدة، ولا شكَّ أن هذا يدفع الهمومَ والغموم، ويوجب الفرحَ والسرور.

التعليق:

هذا علاج صرفه النبيُّ ﷺ لمعرفة نِعَم الله على العبد، وما أكثرَها، فإذا حدثَته نفسُه بالتطلّع إلى ما عند الآخرين ونسيان ما منَّ الله به عليه مِنَ النعم التي حُرِمها خلقٌ كثير؛ فعليه أن يقفَ مع نفسِه وقفةَ حِسابٍ، وليقل لها: انظُري إلى خلقٍ كثيرٍ حُرموا ما منَّ الله به عليك من الإيمان والصحّة والعافية والزوجة والأولاد والكفَاف، ويعدِّد عليها نِعَم الله عليه، وهذا الحديث علاجٌ لمن لم يشكر نِعَم ربّه عليه.

****

قال الشيخ رحمه الله: فصل

٨- **ومن الأسباب الموجبة للسرور وزوال الهمّ والغمّ:** السعيُ في إزالة الأسباب الجالبة للهموم وفي تحصيل الأسباب الجالبة للسرور، وذلك بنسيان ما مضى عليه من المكاره التي لا يمكنه ردُّها، ومعرفته أن اشتغالَ فكرِه فيها من باب العبَث والمحال، وأنّ ذلك حمق وجنون، فيجاهِد قلبَه عن التفكر فيها، وكذلك يجاهد قلبه عن قلَقه لما يستقبله، مما يتوهّمه من فقر أو خوف أو

غيرهما من المكاره التي يتخيَّلها في مستقبَل حياته، فيعلم أنّ الأمور المستقبلة مجهولٌ ما يقع فيها من خَير وشرّ وآمال وآلام، وأنها بيَد العزيز الحكيم، ليس بيد العباد منها شيءٌ إلا السعي في تحصيلِ خيراتها ودفع مضرّاتها، ويعلم العبد أنه إذا صرف فكرَه عن قلقه من أجلِ مستقبل أمره واتكل على ربّه في إصلاحه واطمأن إليه في ذلك، إذا فعل ذلك اطمأنّ قلبه، وصلحت أحواله، وزال عنه همّه وقلقه.

التعليق:

الإنسان يعرف بنفسِه ما هو الشيء الذي يجلب له السرور، فيفكّر فيه ويحدّث نفسه به، وما هو الشيء الذي يجلب له الهمّ والحزن، فيحذَر كلَّ الحذر من التفكير فيه، وإذا غلبه الشيطان وذكّره ما يحزنه أو يخوّفه فعليه مباشرةً أن ينصرفَ عن ذلك.

وبما أن أكثر الأمور التي تشغل الناس إما أشياء ماضية أو مستقبلية تكلَّم عنها الشيخ رحمه الله، فالإنسان عندما يقلّب صفحات الماضي ويتذكّر ما تجلب له الحزن فإنّ الشيطان ينتصِر عليه في مثل هذا الموطن، ويحصّل على ما يريد من حصول الحزن، وهذا مطلب من مطالبه، وكذا إذا فكّر الإنسان في المستقبل وما يتوقَّع أن يحصلَ فيه أو يفاجأ به من أحداث ومشكلات تجلبها الأوهام والخيالات وضعف الإيمان وضعف التوكّل على الله.

والمؤمن لا يلتفت إلى الماضي بقول (لو)، ويعلم أنّ ذلك من عمل الشيطان، ويعلم أنّ ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأنّ ما أخطأه لم يكن ليصيبه، ويعتقد ويجزم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوه بشيء لم ينفعوه إلا بشيء قد كتبه الله له، ولو اجتمعوا على أن يضرّوه بشيء لم يضرّوه إلا بشيء قد كتبه الله عليه.

وهذه العقيدة الراسخة تبعِد عنه الأحزانَ والأوهام، وتجعله يعيش في يومٍ كأنّ حياته كلّها في ذلك اليوم، فيترك فيه جميعَ أنواع العصيان والمنكرات، ويبادر فيه إلى الطاعات والباقيات الصالحات، ويطهّر قلبه من الغلّ والحقد والحسد والظلم، ويبتسم لإخوانه المسلمين، ويعامِلهم بالأخلاق الحسنة.

ومن حفِظ الله في يومه حفظه الله في مستقبله وفي حياته كلّها الدنيوية والأخروية، ومن فعل ذلك فلينتظر النتائج المفرِحة من السعادة القلبية والسرور النفسي.

❊❊❊❊❊❊❊

قال الشيخ رحمه الله: فصل

٩- ومن أنفع ما يكون في ملاحظة مستقبل الأمور: استعمال هذا الدعاء الذي كان النبيّ ﷺ يدعو به: «**اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي إليها معادي،**

واجعل الحياة زيادةً لي في كل خير، واجعل الموت راحةً لي من كل شرّ»[1]، وكذلك قوله: «اللّهمّ رحمتَك أرجو، فلا تكلني إلى نفسي طرفةَ عين، وأصلح لي شأني كلَّه، لا إله إلا أنت»[2].

فإذا لهج العبدُ بهذا الدعاء الذي فيه صلاحُ مستقبله الديني والدنيوي بقلبٍ حاضر ونية صادقة، مع اجتهاده فيما يحقّق ذلك؛ حقّق الله له ما دعاه ورجاه وعمل له، وانقلب همّه فرحًا وسرورًا.

التعليق:

الدعاءُ له أسرارٌ عجيبة، فهو حقيقةُ العبادة والذلّ والخشوع لمن يستحقّ ذلك، وهو الله تعالى، فينزل الإنسان حاجَته عند من بيده خزائن السماوات والأرض ويكشف الكروب ويزيل الهموم والغموم وينزل السكينة على من يشاء من عباده، فإذا أعطى المولى سبحانه السكينةَ للعبد حصلت له السعادة ولو فقَد متاعَ الدنيا كلَّه، ولو نزَع منه سكينة النفس وراحةَ البال حَصَل له القلق ولو ملَك متاعَ الدنيا من الجاهِ والمنصب والمال والأولاد والزوجة.

---

(١) رواه مسلم (٢٧٢٠) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) رواه أحمد (٥/ ٤٢) والبخاري في «الأدب المفرد» (٧٠١) وأبو داود (٥٠٩٠) والنسائي في «الكبرى» (١٠٤٨٧) من حديث أبي بكرة ﷺ، وصححه ابن حبان (٩٧٠) وهو في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٨٢٣).

إذن، علينا أن نلح على الله في الدعاء، والله يحبّ من يدعوه، ويحبّ الملحّين في الدعاء، قال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦]، والرسول ﷺ يقول: «ليس شيءٌ أكرم على الله تعالى من الدعاء»[1]، وفي الحديث الآخر: «الدعاء هو العبادة»[2].

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٣٦٢) والبخاري في «الأدب المفرد» (٧١٢) والترمذي (٣٣٧٠) وابن ماجه (٣٨٢٩) من حديث أبي هريرة ﷺ، قال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب»، وصححه ابن حبان (٨٧٠)، والحاكم (١٨٠١)، وهو في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٦٢٩).

(٢) رواه أحمد (٤/ ٢٦٧) والبخاري في «الأدب المفرد» (٧١٤) وأبو داود (١٤٧٩) والترمذي (٣٢٤٧) والنسائي في «الكبرى» (١١٤٦٤) وابن ماجه (٣٨٢٨) من حديث النعمان بن بشير ﷺ، قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح»، وصححه ابن حبان (٨٩٠)، والحاكم (١٨٠٢)، وهو في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٦٢٧).

وللدعاء آدابٌ ينبغي للمسلم أن يحرِصَ عليها، منها:

أن يستقبلَ القبلة، ويرفع يديه، ويخفض صوته حال الدعاء، ويبدأ بذكر الله عز وجل، ثمّ يصلّي على النبي ﷺ.

ومن آدابه وهو الأصل في الإجابة: التوبةُ الصادقة وردّ المظالم.

ويتحرّى أوقاتَ الإجابة، مثل: يوم عرفة، وفي شهر رمضان لا سيما عند الإفطار، وفي السحر، وعقيب الصلوات، وعند نزول الغيث، وفي السجود، ووقت صفاء القلب وفراغه من شواغل الدنيا.

واعلَم أنّ من أعظم الأدعية في تفريج الكرُبات دعاءُ يونسَ -عليه السلام- وهو في محنة عظيمة في بطن الحوت، فعن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«دعوة ذي النون إذ دعا وهو في بطن الحوت: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنتُ من الظالمين، فإنه لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له»**[1].

فيا من ابتلي بعدم الراحة والاستقرار النفسي، يا مَن أتته الدنيا والأمور على ما لا يريدُ، فضاقت به الحيل، وساءت به الظنون، عليك بدعاء يونس،

(١) رواه أحمد (١/ ١٧٠) والترمذي (٣٥٠٥) والنسائي في «الكبرى» (١٠٤٩٢)، وصححه الحاكم (١٨٦٢)، وهو في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٦٤٤).

فسوفَ تحصل لك النجاةُ والرحمة بإذنه تعالى، وأحسِن الظنَّ بالله سبحانه، وسترى الثمرةَ، ولا تستعجِل.

****

قال الشيخ رحمه الله: فصل

١٠- ومن أنفع الأسباب لزوال القلق والهموم إذا حصل على العبد شيءٌ من النكبات: أن يسعى في تخفيفها بأن يقدِّر أسوأ الاحتمالات التي ينتهِي إليها الأمر، ويوطِّن على ذلك نفسَه، فإذا فعل ذلك فليسعَ إلى تخفيفِ ما يمكن تخفيفه بحسَبِ الإمكان، فبهذا التوطينِ وبهذا السعيِ النافع تزول همومه وغمومه، ويكون بدَلَ ذلك السعيَ في جلب المنافع، وفي دفع المضارِّ الميسورة للعبد.

فإذا حلّت به أسباب الخوف، وأسباب الأسقام، وأسباب الفقر والعدم لما يحبّه من المحبوبات المتنوّعة، فليتلقَّ ذلك بطمأنينةٍ وتوطينٍ للنفس عليها، بل على أشدِّ ما يمكن منها، فإنَّ توطينَ النفس على احتمال المكاره يهوِّنها ويزيل شدَّتها، وخصوصًا إذا أشغل نفسه بمدافعتها بحسَب مقدورِه، فيجتمع في حقِّه توطينُ النفس مع السعيِ النافع الذي يشغَل عن الاهتمام بالمصائب، ويجاهِد نفسه على تجديد قوّة المقاومة للمكارِه، مع اعتماده في ذلك على الله وحُسن الثقة به.

ولا ريبَ أنّ لهذه الأمور فائدتها العظمَى في حصول السرور وانشراح الصدور، مع ما يؤمِّله العبد من الثواب العاجل والآجل، وهذا مشاهد مجرَّب، ووقائعه ممّن جرَّبه كثيرة جدًّا.

التعليق:

إذا نظرنا إلى واقعِ الناس وما يقلقهم لوجدنا أنَّ كثيرًا منهم يتخوّفون من أشياء لا تقع، وقد أُجرِيت دراسة على ما يتوقَّع الناس وقوعه، فكانت النتيجة أنّ أكثر من ٩٠٪ لا يقَع.

فعلى الإنسان أن يحسن الظنَّ بالله، ويفعل الأسباب التي تجنّبه الأخطار، وإذا حصل ما يخشَى منه بأن حصل ما لا يريد أو فاتَه ما يريد فليوطِّن نفسَه على ذلك، وليعلمْ أنّ دوام الحال من المحال، وأن ما حصل كان بقضاء الله وقدره، وأنَّ حزنه لن يغيِّر من الواقع شيئًا، وليستسلمْ لقضاء الله ويؤمن أنّه خيرٌ له وإن كرهته نفسه؛ سواء كان ذلك مرضًا أو خسارةً ماليةً أو فواتَ منصب أو جاهٍ، قال الله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾ [البقرة: ٢١٦]، ولينتظر الفرج من الله، والأجر والثواب من عنده سبحانه وتعالى، وليقارن ما فاته من نعمةٍ أو حصل له من محنة بما أنعم الله عليه من أصناف النعم وصرف عنه من أنواع النِّقَم.

انظر إلى عروة بن الزبير ﷺ لما فقَد رجلَه وولده في وقتٍ واحد، لم يتوجَّع ولم يتحسَّر على ما فاته، بل قال في ثبات وسكينة: «لئن أخذ مني عضوًا فلقَد أبقى لي ثلاثة أعضاء، ولئن أخذ ولدًا لقد أبقى لي ستةً من الولد». وطَّن نفسه على المصيبة، ونظر إلى ما بَقِي من النَّعَم حتى يتسلّى بها على ما فات.

فالمسلم إذا حصَلت له مصيبة فليقل ما أرشدَ إليه النبيّ ﷺ: «اللّهمّ أجرني في مصيبتي، وأخلف لي خيرًا منها»[1]، فمن قال ذلك أعظم الله أجره وأخلفه خيرًا من ذلك. فقد قالت أمّ سلمة ذلك بإيمانٍ عميق لما مات أبو سلمة، فأخلفها الله برسول الله ﷺ، وأصبَحت من أمهات المؤمنين.

وقالها والد صاحب «فتح الباري» عندما توفي ابنه الأكبر وهو من طلبة العلم، فأخلفه الله بابنه المشهور ابن حجر الذي بلغ كتابُه الآفاق وقيل بعد تأليفه: لا هجرة بعد الفتح، أي: لا هجرة في طلب العلم بعد هذا الكتاب النفيس.

وسكينةُ النفس وطمأنينة القلبِ تأتي مع التسليم بأسوَأ الفروض والاحتمالات.

****

(١) رواه مسلم (٩١٨) من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

قال الشيخ رحمه الله: فصل

١١- ومن أعظم العلاجات لأمراض القلب العصبية، بل وأيضًا الأمراض البدنيّة: قوّة القلب وعدم انزعاجه وانفعاله للأوهام والخيالات التي تجلبها الأفكار السيئة، والغضبِ والتشوّش من الأسباب المؤلمة.

ومن توقَّع حدوثَ المكاره وزوال المحابّ أوقعه ذلك في الهموم والغموم والأمراض القلبية والبدنية والانهيار العصبي الذي له آثاره السيئة التي قد شاهد الناس مضارّها الكثيرة.

❊❊❊❊❊❊❊

قال الشيخ رحمه الله: فصل

١٢- ومتى اعتمد القلب على الله، وتوكّل عليه، ولم يستسلم للأوهام، ولا ملكته الخيالات السيئة، ووثق بالله، وطمع في فضله، اندفعت عنه بذلك الهموم والغموم، وزالت عنه كثير من الأسقام البدنية والقلبية، وحصل للقلب من القوة والانشراح والسرور ما لا يمكن التعبير عنه، فكم ملئت المستشفيات من مرضى الأوهام والخيالات الفاسدة! وكم أثرت هذه الأمور على قلوب كثير من الأقوياء، فضلًا عن الضعفاء! وكم أدت إلى الحمق والجنون! والمعافى من عافاه الله ووفقه لجهاد نفسه لتحصيل الأسباب النافعة

المقوية للقلب الدافعة لقلقه، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]، أي: كافية جميعَ ما يهمّه من أمر دينه ودنياه.

فالمتوكل على الله قويُّ القلب، لا تؤثّر فيه الأوهام، ولا تزعجه الحوادث؛ لعلمه أنَّ ذلك من ضَعف النفس، ومنَ الخوَر والخوف الذي لا حقيقةَ له، ويعلَم مع ذلك أن الله قد تكفَّل لمن توكّل عليه بالكفاية التامّة، فيثق بالله ويطمئنّ لوعده، فيزول همّه وقلقُه، ويتبدَّل عسره يُسرًا، وتَرحه فَرحًا، وخوفه أمنًا، فنسأله تعالى العافيةَ، وأن يتفضَّل علينا بقوة القلب وثباته، وبالتوكّل الكامِل الذي تكفَّل الله لأهلِه بكلِّ خير، ودفع كلِّ مكروه وضَير.

التعليق:

تحدَّث الشيخ -رحمه الله- في السَّبب الحادِي عشر والثاني عشر عن قوَّة القلب وعدَم الانزعاج من الأوهام والخيالات التي تمليها الأفكار السيِّئةُ والشيطانيَّة، وذكر أنَّ أعظمَ سببٍ لقوَّة القلب وثباته هو التوكُّل على الله جلّت قدرته وتقدَّست أسماؤه وصفاته، قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢]، وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى

ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]، وقال رسول الله ﷺ: «لو أنكم توكّلتم على الله حقَّ توكّله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خِماصًا وتروح بطانًا»(١).

فإن علِم الإنسان أن لا جالبَ للنفع ولا دافعَ للضرّ إلا الله لم ينظر إلى غيرِه، ولم يلتفت إلى ما سواه، بل يكون منه الخوفُ، وله الرجاء، وبه الثقة، وعليه التوكّل؛ لأنّه في الحقيقة هو المدبّر سبحانه وتعالى.

ولما استقرّت هذه العقيدةُ الراسخة في قلوب الأنبياءِ والرسل -عليهم الصلاة والسلام- وفي قلوب الصالحين الأتقياء حصَلَت لهم سكينةُ النفوس وراحةُ البالِ واستقرار الحال، ولم تؤثّر فيهم المزعجات والملمّات.

فهذا إبراهيم -عليه السلام- وهو في المنجنيق ليُلقى به في النار يقول: «حسبِيَ الله ونعمَ الوكيل»، فحصلت النتيجةُ والثمرة مباشرةً: ﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]، قال ذلك بثبات وسكينة وإيمانٍ صادق؛ لأنه يعلم أنّ الذي يدبّر الأمر هو الله وحدَه، وأنّ الخلقَ لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا، فضلا عن أن يملكوه لغيرهم.

---

(١) رواه أحمد (١/ ٥٢) والترمذي (٢٣٤٤) وابن ماجه (٤١٦٤) من حديث عمر بن الخطاب ﷺ، قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح»، وصححه ابن حبان (٧٣٠)، والحاكم (٧٨٩٤)، وهو في «السلسلة الصحيحة» (٣١٠).

وهذا نبيُّنا -صلوات الله وسلامه عليه- يقول: «حسبنا الله ونعم الوكيل» عندما قالوا له: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ [آل عمران ١٧٣، ١٧٤][1].

وموسى -عليه السلام- لما تبعه فرعونُ بجنوده وكان البحر من أمامهم قال الذين مع موسى: يا موسى، إنَّ القوم قد أدركونا، قال منِ اعتمد وتوكَّل على الله وعلِم أنَّ الأمرَ بيد الله لا بيد فرعون: «كلا إنَّ معيَ ربِّي سيهدينِ»، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦١، ٦٢].

فيا من نزلت به نازلةٌ وحصلت له مصيبة وضاقَت عليه الأمور، قل: «حَسبِيَ الله ونِعمَ الوكيل»، واعتمد على ربِّك وحدَه، وسترى الفرج، ويحصل لك السرور والابتهاج والسعادة، وتنزل عليك السكينة؛ لأنك اعتمدتَ على من بِيَده مقاليدُ الأمور.

❊❊❊❊❊❊

(١) رواه البخاري (٤٢٨٧) من حديث ابن عباس ﷺ.

قال الشيخ رحمه الله: فصل

١٣- وفي قول النبيِّ ﷺ: «**لا يفرُك مؤمنٌ مؤمنةً؛ إن كرِه منها خُلقًا رضي منها خلُقًا آخر**»[1] فائدتان عظيمتان:

إحداهما: الإرشاد إلى معاملة الزوجة والقريب والصاحب والمعامل وكلِّ من بينك وبينه علاقة واتّصال، وأنّه ينبغي أن توطِّن نفسَك على أنه لا بدَّ أن يكون فيه عيبٌ أو نقص أو أمر تكرَهه، فإذا وجدتَ ذلك فقارِن بين هذا وبين ما يجب عليك أو ينبغي لك من قوّة الاتصال والإبقاء على المحبة، بتذكُّرِ ما فيه من المحاسن والمقاصدِ الخاصّة والعامّة، وبهذا الإغضاء عن المساوِئ وملاحظةِ المحاسن تدوم الصّحبة والاتصال وتتمّ الراحة وتحصل لك.

الفائدة الثانية: وهي زوال الهمّ والقلق، وبقاء الصفاء، والمداومة على القيام بالحقوق الواجبة والمستحبة، وحصول الراحة بين الطرفين، ومَن لم يسترشِد بهذا الذي ذكَره النبيّ ﷺ بل عكس القضية؛ فلَحظ المساوئَ وعمِي عن المحاسن فلا بدَّ أن يقلق، ولا بدَّ أن يتكدَّر ما بينه وبين من يتّصل به مِنَ المحبّة، ويتقطّع كثير من الحقوق التي على كلٍّ منهما المحافظةُ عليها.

وكثير منَ الناسِ ذوي الهمم العاليَة يوطّنون أنفسَهم عند وقوعِ الكوارث والمزعِجات على الصبر والطمأنينة، لكن عند الأمور التافِهة البسيطةِ يقلَقون،

---

(١) رواه مسلم (١٤٦٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

ويتكدّر الصفاء، والسبب في هذا أنهم وطّنوا أنفسهم عند الأمور الكِبار، وتركوها عند الأمور الصِّغار، فضرّتهم وأثّرت في راحتهم.

فالحازم يوطّن نفسَه على الأمور القليلة والكبيرة، ويسأل الله الإعانة عليها، وأن لا يكِلَه إلى نفسه طرفةَ عين، فعند ذلك يسهل الصغير، كما سَهل عليه الكبير، ويبقى مطمئن النفس ساكن القلب مستريحًا.

التعليق:

قاعدة عظيمة أخذها المؤلف -رحمه الله تعالى- من حديثٍ شريف في التعامل مع كلِّ مُعاشِر؛ كالزوجة والأقارب والأصدقاء والجيران، وذلك أنّ الإنسان لا يمكن أن ينفكّ في حياته من التعامل اليوميّ مع الناس بشتى الصّور، وهذا الاختلاطُ وتلك المعاملة والمعاشرة لا بدّ أن يكونَ فيها أخطاء مِن بعضهم على بعض، سواء في فِعلٍ أو لمز أو همز، بقصدٍ أو بغير قَصد، فأرشدَنا الشيخ -رحمه الله وجمعنا به في جنات النعيم- إلى أنَّ على الإنسان أن يغضَّ الطرفَ عن الأخطاء والمساوئ والزلّات، وأن ينظرَ إلى حسنات المُعاشِر وهي كثيرة، فهي أصفَى للنفوس وأدوَم للودّ وزوال الهمّ والقلق.

فالإنسان عندما يفكّر بحسنات صاحبِه ويتغافَل عمّا جُبِل عليه مِن الأخطاء فلا شكَّ أن المودّة سوف تستمِرّ وأن القلوبَ تبتهِج.

أما إذا عُكست القاعدةُ ونُظِر إلى جوانب النقص وضُخِّمتِ الأخطاءُ وأغفِلت وأهمِلت الحسنات فالخلافات حتميّة والنزاعات طبيعيّة.

فلو نظرنا إلى من طبّق هذه القاعدةَ في حياته، فبدأ بأسرته وغضّ الطرف عن الأخطاء الزوجيّة؛ فإن بناء الأسرة يدوم، وإن دقّق الزوجُ أو الزوجة في أخطاءِ الطرف الآخر فإنّ النهاية هي الخلافُ والطلاق.

والمتأمّل يجدُ هذا واضحًا جليًا، فكم مِن أسرٍ هدّمت بأسبابٍ يحصل أكبرُ منها في أسَر أخرى، والسّرّ أن هذه الأسر الأخرى عُمِرت بغضّ الطرف والتجاوز وامتثال التوجيه النبويّ الشريف. وكذلك الحالُ مع الناس، فمن حاسب في كلّ صغيرة وكبيرة لم يَصفُ له ودٌّ، ولن يدومَ له صاحب، ويحصل له خلاف كبير مع الناس.

وفي الجملة فإنَّ من عفا وتسامَح عاش بسلامٍ مع الناس، وأدرك الأجر والفضل من الله تعالى، وارتاحت نفسه، وسكن ضميره، ومن لم يكن كذلك عاش في قلقٍ واضطراب؛ لأنَّ مِن عدم راحة القلب الخلافَ والشقاقَ مع الخلق.

اللهم ارزقنا حسنَ الأخلاق وجميلَ الآداب وطهارةَ القلب وسلامةَ الصدر، يا ربَّ العالمين.

****

قال الشيخ رحمه الله: فصل

١٤- العاقل يعلم أنَّ حياتَه الصحيحةَ حياةُ السعادَة والطمأنينة، وأنها قصيرة جدًّا، فلا ينبغي له أن يقصرها بالهمّ والاسترسال مع الأكدار، فإنَّ ذلك ضدُّ الحياة الصحيحة، فيشح بحياته أن يذهب كثير منها نهبًا للهموم والأكدار، ولا فرق في هذا بين البرّ والفاجر، ولكن المؤمن له من التّحقّق بهذا الوصفِ الحظُّ الأوفر والنصيب النافع العاجل والآجل.

التعليق:

يقرر المؤلف -رحمه الله تعالى- مسألةً مهمّة، وهي أنّ على المؤمن أن ينظرَ إلى هذه الدنيا -لاسيّما عندما ينزل به ما يكره- نظرةً شرعيّة مبنيّة على كتاب الله تعالى وسنّة رسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

فهذه الدنيا أخبرنا الله سبحانه وتعالى أنها قصيرة جدًّا، فلا نغترّ بها، ولا تتعلّق بها ونفرح إذا حصلنا عليها ونحزن إذا فاتنا شيء من متاعها الزائل، بل نعلّق القلوب والنفوس بالحياة الأبديّة، وهذا ما دلّنا عليه رسول الهدى ﷺ بقوله: «مَن كانت الآخرة همّه جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شَملَه، وأتته

الدنيا وهي راغمةٌ، ومن كانت الدنيا همَّه جعل الله فقره بين عَينَيه، وفرّق عليه شملَه، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدِّر له»[1].

فلو طبّقنا هذا في حياتنا لعِشنا في أمنٍ وأمان، وإذا فات أمرٌ من أمور الدنيا قلنا: على الدنيا السلام وما عند الله خيرٌ للأبرار، قال الله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦].

فعلى المؤمن الواثق بالله تعالى أن يجعلَ همَّه الآخرةَ وما فيها من النعيم المقيم ورؤيةِ ربِّ العالمين، ولا يتعلّق بالدنيا الزائلة وزينتِها وزخرفها، وليتذكّر أنّ الحياةَ الدنيا حقيرةٌ قصيرة كما قال الحبيب المصطفى ﷺ: «أعمار أمّتي ما بين الستين إلى السبعين، وأقلُّهم من يجوزُ ذلك»[2].

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٦٥) من حديث أنس بن مالك ﷺ، وهو في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣١٦٩).

(٢) رواه الترمذي (٣٥٥٠) وابن ماجه (٤٢٣٦) من حديث أبي هريرة ﷺ، قال الترمذي: «حديث حسن غريب»، وصححه ابن حبان (٢٩٨٠)، والحاكم (٣٥٩٨)، وهو في «السلسلة الصحيحة» (٧٥٧).

فالدنيا مهما امتدَّت فهي قصيرة، فلماذا تضييعُ هذا الوقت القصيرِ في الأحزان والهموم؟! فأسعِد قلبك بالتعلّق بالله وحده وبالدارِ الآخرة.

اللّهم اجعل همّنا همًّا واحدًا هو همّ الآخرة، وأفرغ قلوبنا من هموم الدنيا يا أرحم الراحمين.

****

قال الشيخ رحمه الله: فصل

١٥- وينبغي أيضًا إذا أصابه مكروه أو خافَ منه أن يقارنَ بين بقيّةِ النِّعَم الحاصلةِ له دينيّة أو دنيوية وبين ما أصابه من مكروه، فعند المقارنة يتَّضح كثرةُ ما هو فيه من النِّعَم، واضمحلال ما أصابه من المكاره.

وكذلك يقارن بين ما يخافه من حدوث ضَرَر عليه وبين الاحتمالات الكثيرة في السلامة منها، فلا يدَع الاحتمال الضعيف يغلبُ الاحتمالات الكثيرة القويّة، وبذلك يزول همُّه وخوفه، ويقدّر أعظم ما يكون من الاحتمالات التي يمكن أن تصيبَه، فيوطِّن نفسه لحدوثها إن حدثت، ويسعى في دفع ما لم يقع منها، وفي رفع ما وقع أو تخفيفه.

التعليق:

مهما فقَد الإنسان من نِعمَة فإنّ ما بقي له من النعم لا يقارَن البتّةَ بما حُرم منه، ولكن الإنسان يظلِم نفسه، ويجحَد نِعَم ربّه عليه، فيُعاقَب في الدنيا قبل

الآخرة بالهموم والأحزان، قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، ظلوم لنفسه كفار بنعم الله، فنجد أنه ينظر إلى أمرٍ حُرِم منه لمصلحتِه، فيُعاقَب بالهمّ والحزن، وينسَى النِّعَم التي يتمتّع بها من الإيمان والقرآنِ والبصر والأمن والصحة وغير ذلك كثير، لا يُفرّط فيه بأغلى الأثمان.

ومن أراد أن يتعرف على شيء من نعم الله عليه فعليه بزيارةِ المستشفيات ودور النقاهة، فإذا قارن وجَد الفرق الشاسع والبَونَ الواسع.

وكذلك في الأمور المستقبلية يحسِن الظنّ بالله سبحانه وتعالى، ويتوقَّع أنه سيحصُل له من الأمور السارّة الشيء الكثير، وأنّ ما سيأتي عليه خير مما مضى، وبذلك يحصل على الشيء الكثير من الراحة النفسية وطمأنينة القلب.

❋❋❋❋❋❋❋

قال الشيخ رحمه الله: فصل

١٦- ومن الأمور النافعة: أن تعرِفَ أنَّ أذيّةَ الناس لك وخصوصًا في الأقوال السيّئة لا تضرّك بل تضرُّهم، إلا إن أشغلتَ نفسَك في الاهتمام بها، وسوَّغتَ لها أن تملِك مشاعِرَك، فعند ذلك تضرُّك كما ضرَّتهم، فإن أنت لم تضَع لها بالًا لم تضرَّك شيئًا.

التعليق:

من قرأ سِيرَ الأنبياء والمرسلين -عليهم الصلاة والسلام- وما حصل لهم من الأذى والتكذيب والاتهام وغير ذلك؛ هان عليه ما يسمعه وينالُه من أذى الخلق، كيف والله سبحانه وتعالى معه، وسوف يدافع عنه وينصره على من ظلمه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج: ٣٨].

وحديثُ الناس عنك لا يضرُّك لأنَّ الله معك، وهم يُهدونك أغلى ما يملِكون من الحسَنات؛ ولذا رُوي عن غيرِ واحدٍ من السّلَف أنهم إذا بلغهم أنَّ شخصًا تحدَّث فيهم ونال منهم يرسلون إليه هدية ويقولون: نعطيه مما عندنا لأنه أعطانا أغلى ما عنده -يقصدون الحسنات-.

وأشار الشيخ -رحمه الله- إلى أمرٍ مهمّ، وهو أنّ الإنسان إذا أصبح أذُنًا ويتحرّى ما يُقال وأخذ يسمَع ويحلّل هذا الكلام ويُشغل نفسَه به ويُردّده في نفسِه وذِهنه فإنه سيصيبه الحزن.

ولو رَجعنا إلى سير العلماء والعظماء ومن حصل لهم الأذية من الخلقِ لرأينا كيف كانت العاقبة لهم، والخسران على من نال منهم؛ لأنه لا يصح إلا الصحيح، ولا يبقى إلا الحق، وفي ذلك تسلية لمن بُلي بشيء من ذلك.

****

قال الشيخ رحمه الله: فصل

١٧- واعلم أنَّ حياتك تبعٌ لأفكارك، فإن كانت أفكارًا فيما يعودُ عليها نفعه في دين أو دنيا فحياتك طيّبة سعيدة، وإلا فالأمر بالعكس.

التعليق:

السعادة شعورٌ داخليّ منبعه الإيمان الصافي، لا كما يظنّ بعد الناس بتفكيرهم الخاطئ أنّ السعادة بالمال والمنصب والجاه، فكم من صاحب مكانة هو من أشقى الناس؛ لا ينام إلا بكلفة، حتى أُصيب ببعض الأمراض المزمنة كالضّغط والسكري ونحو ذلك، والنّاس يظنون أنّه سعيد.

إذن حقيقة السعادة هي ضبط الأفكارِ، وأن تكون موجَّهة توجيهًا صحيحًا سليمًا، يعود على المرء بالنفع والفائدة في العاجل والآجل.

والمسلم يفكّر دائمًا وأبدًا برضا ربّه سبحانه وتعالى، ويجعل هدفَه في الحياة رضَا الله؛ لأنه يعلَم أنّ برضا الله ينال السعادةَ في الدارين، فهو يفكّر بالحصول على ذلك.

والمسلِم يتفاءل في كلّ أمورِه في السراء والضّراء، ويطرد عن عقله الأفكارَ السوداء التي تجلب له الوساوس والأخطاء.

والمسلم يفكّر أيضًا بما يصلِح دنياه ويغنيه عن السؤال والحاجة إلى الناس دائمًا في أيّ مصلحة دنيويّة، أمّا من استولى الشيطان على تفكيره وأخَذَ يفكّر

بالمحرمات والأخطاء والسيئات وينظر إلى الدنيا بتشاؤمٍ فإنّ ذلك من المؤكّد أن ينعكس عليه سلبًا.

وعلينا أن نعلمَ إذا أردنا أن نغيِّر إنسانًا من واقعه الذي يعيش فيه أن نبدأ بتغييرِ أفكاره من السلبيّة إلى الإيجابيّة.

****

قال الشيخ رحمه الله: فصل

١٨- ومِن أنفعِ الأمور لطردِ الهمِّ: أن توطِّنَ نفسَك على أن لا تطلُبَ الشكرَ إلا منَ الله، فإذا أحسَنتَ إلى مَن له حقٌّ عليك أو مَن ليس له حقّ فاعلم أنّ هذه معاملة منك مع الله، فلا تبالِ بشكر من أنعمتَ عليه، كما قال تعالى في حقّ خواصّ خَلقِه: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩].

ويتأكّد هذا في معاملةِ الأهلِ والأولاد مِن قوّةِ اتصالك بهم، فمتى وطّنتَ نفسك على إلقاء الشرّ عنهم فقد أرحتَ واسترحت. ومِن دواعي الراحةِ أخذُ الفضائل والعمَل عليها بحسَب الداعي النفسيّ دون التكلّف الذي يُقلِقك، وتعود على أدراجك خائبًا من حصولِ الفضيلة، حيث سلكتَ الطريق

الملتوي، وهذا من الحكمة، وأن تتّخذ من الأمور الكَدِرَة أمورًا صافية حلوَة، وبذلك يزيد صفاء اللذات، وتزول الأكدار.

التعليق:

الإسلام يحثُّنا على الإحسان إلى الآخرين، سواء كان قريبًا أو جارًا أو غيرَ ذلك، بل يحثُّنا على ذلك مع جميع الناس، بل حتى مع الحيوانات، وهذا من كمالِ الدين، وعلى الإنسانِ أن يصنعَ ذلك ابتغاءَ مرضاةِ الله سبحانه وتعالى، وينتظر الأجر والفضلَ من الله وحده في الدنيا والآخرة؛ لأنّ الإحسان إلى الخلق له نتائج وفضائل في الدارين، ولكن على المسلِم أن يحذَر من صنع هذا من أجل أن يشكُرَه الناس ويمدَحوه، وإن كان الإسلام يحثُّ مَن صُنِعَ له معروف أن يشكَر صانِعَه ويدعو له بالخير، لكن صانعُ المعروف لا ينبغِي له أن يطلُبَ الشكر إلا من الله وحدَه، ومَن طلب في عملِ المعروفِ شكرَ الناس وثناءَهم عليه فعليه أن يتحمّل الأمور المترتّبة على ذلك من فواتِ الأجر والجحودِ والنكران، بل أحيانًا الإساءة ممن أحسنتَ إليه، ويحصل بذلك ما تكره النفسُ؛ لأنه صنع معروفَه من أجل الناس، فكان هذا جزاءً له عاجلًا.

فكن -أخي المسلم- ممن يصنع المعروف لأجل الله تعالى، فإن كنت كذلك -وما أظنّك إلا ذاك فأبشر بالأجر والثواب وسكينة النفس وراحة البال.

وعزاءُ مَن صنع معروفًا للنّاس ثمّ قوبل بالجحود والنكران ما روي في الحديث القدسي من قولِ الربّ جلّ وعلا: «**إنّي والجن والإنس في نبأ عظيم؛ أخلُق ويُعبد غيري، وأرزق ويُشكر غيري**»[1].

****

قال الشيخ رحمه الله: فصل

١٩- اجعل الأمور النافعة نصبَ عينَيك، واعمَل على تحقيقها، ولا تلتفِت إلى الأمور الضارّة؛ لتلهو بذلك عن الأسباب الجالبة للهمّ والحزن، واستعن بالراحة وإجماع النفس على الأعمال المهمّة.

التعليق:

وقتُ المسلم ثمين جدًّا، عليه أن يستغلَّه فيما يعود عليه بالنفع، ويحذر من الفراغ القاتل. والفراغُ ينقسم إلى قسمين: حسّيّ ومعنويّ.

فالفراغ المعنوي: هو فراغ القلب والفكر من هدف يعيش من أجله، وهذا خطير جدًّا على الإنسان، فهذا مهما اشتغَل بما في الدنيا من تجارة ولهو إلا أن ذلك الفراغ ينتهِي به إلى القلق، وهذه حال من يبتعِد عن الله.

---

(١) رواه الطبراني في «مسند الشاميين» (٩٧٤، ٩٧٥) من حديث أبي الدرداء ﷺ، وهو في «السلسلة الضعيفة» (٢٣٧١).

والقسم الثاني من أقسام الفراغ: **الفراغ الحسّي**، وهو أن يكون عند الإنسان هدَف ولكنه يعيش فراغًا من العمل، ولا يجعل نصبَ عينيه الأمور النافعة، بل ربما التفت إلى الأمور الضارّة، وهذا بلا شكّ يؤثّر على نفسيته ويؤدّي إلى قلقه، ولكن على المسلمِ أن يعمل في كل يوم عملًا مثمرًا ولو كان قليلا؛ يقضي حاجة إنسان، يقرأ صفحاتٍ من كتاب، يحفظ آياتٍ من كتاب الله، يشارك مع الجهاتِ الخيرية والدعوية، وغير ذلك من الأعمال التي تجلب الخير والسرور والسعادة للعبد في الدنيا والآخرة، فقيمة الإنسان بقدر عطائه لدينه وأمته.

❊❊❊❊❊❊❊

قال الشيخ رحمه الله: فصل

٢٠- ومن الأمور النافعة: حسمُ الأعمال في الحالِ، والتفرّغ في المستقبَل؛ لأنَّ الأعمالَ إذا لم تُحسَم اجتمَع عليك بقيّة الأعمال السابقة، وانضافَت إليها الأعمالُ اللاحقة، فتشتدّ وطأتها، فإذا حَسمتَ كلَّ شيء بوقته أتيتَ الأمور المستقبلَة بقوّةِ تفكيرٍ وقوّة عمل.

التعليق:

رسالة المسلم في الحياة كبيرةٌ وعظيمة، وحيث إنَّ الأمرُ كذلك فلا بدَّ من ضبطِ النفس وتوزيع الأعمالِ وإنجازِ المهمات، فهناك الواجباتُ الشرعيّة مثل

الصلاة في وقتها مع الجماعة في المسجد، وهناك الارتباطات الاجتماعية والمسؤوليات الأسرية، ومسؤوليات أخرى وظيفيّة وتجارية، ناهيك عن كثرة الشواغل والمستجدّات في هذا العصر، وكلّ هذا الكمّ الهائل إذا لم يرتّبه الإنسانُ فسوف تختلِط أوراقه، ويصاب بالإحباط وخيبة الأمل عندما تجتمع عليه الأمور ولا يرى أنه أنجز شيئًا منها.

وهناك نظرية تقول: إنّ الإنسان تجاه الوقت أمامَه أربعةُ أمور:

١- **مهمة طارئة**: مثل حاجة الأولاد للعلاج ونحو ذلك، فلا خيار له إلا الإنجاز الفوريّ.

٢- **مهمة غير طارئة**: مثل القراءة النافعة والهادِفة والجلسة مع الأولاد وغير ذلك مما فيه نفع.

٣- **طارئة غير مهمة**: وذلك مثل الحديثِ في الهاتف الجوال، فقد يرد الإنسان على الهاتف الجوال ويجلس لدقائق ولكن هذه المكالمة ليسَت مهمة.

٤- **غيرُ مهمّة ولا طارئة**: مثل مشاهدة التلفاز وقراءة الجرائد ونحو ذلك، فهي ليست مهمّةً ولا طارئة.

يقول صاحب هذه النظرية وهو (ستيفن كوفي) في كتاب العادات السّبع: «إنّ الناجحين والمبدِعين في الحياة يدخلون في الصنف الثاني».

والمقصود أنّه ينبغي للمسلم معرفةُ قيمةِ الوقت، وأنه نَفيس، وأنّ ما مضى منه لا يعود، وأنه سريع الانقضاء، وسوف يحاسَب عليه، فعليه بمتابعة نفسه كيف يقضي وقته. **اللّهمّ أعِنّا على استغلال أوقاتنا.**

****

قال الشيخ رحمه الله: فصل

٢١- وينبغي أن تتخيَّر من الأعمال النافعة الأهمّ فالأهمّ، وميِّز بين ما تميل نفسُك إليه وتشتدّ رغبتك فيه، فإنَّ ضدَّه يُحدِث السآمة والمللَ والكدَرَ، واستعِن على ذلك بالفكر الصحيحِ والمشاورَة، فما ندِم من استشار، وادرُس ما تريد فعلَه درسًا دقيقًا، فإذا تحقَّقت المصلحة وعزمتَ فتوكَّل على الله، إنّ الله يحب المتوكِّلين.

التعليق:

يختم الشيخ -رحمه الله- هذا الكنزَ الثمين بقوله: إنَّ الإنسانَ أمامه أمورٌ كثيرة، ولكلّ إنسان ميولٌ، وفي هذه الحال عليه أن يقدِّم الأهمَّ على المهمّ، وهناك قاعدة شرعية تقول: (إذا تزاحمتِ المصالح يؤخَذ بأعلاها ولو فات أدناها). فيبدأ بالواجبات قبل المستحبّات، وبالمستحبّات التي فيها نفعٌ للأمة على المستحبات التي تقتصِر على النفس، ويراعي في ذلك ميولَ نفسِه حتى لا تملّ وتترك العمَل.

فبعض الناس يميل إلى طلب العلم، وآخر يميل إلى الدعوة إلى الله، وثالث إلى الأعمال الخيرية.

كتب شخص إلى الإمام مالك -رحمه الله- يحثّه على الصيام ونوافل العبادات، فكتب إليه الإمام مالك: «إن الله فتح عليَّ بابًا خيرًا مما فتَح عليك»، يقصد: العلمَ ونشرَه، ولا شكَّ أنَّ نشرَ العلمِ أفضل من سائِرِ النوافل؛ لأنه يتعدَّى نفعُه إلى الغير، أمّا نافلة العبادة فنفعها قاصرٌ على صاحبها، وقد عقَد النوويّ -رحمه الله تعالى- في كتابه «المجموع شرح المهذّب» في المجلد الأول فصلًا في ذلك.

وما أجودَ التنويع على النفس في جميع الأعمال؛ حتى يدركَ الإنسان جميعَ الفضائل، يقول الإمام أحمد رحمه الله تعالى: «لم أعلم حديثًا في الفضائل إلا عملتُ به ولو مرّة واحدة؛ حتى أصيبَ السنة».

اللهم بارك لنا في أوقاتنا وأنفُسنا وأولادنا، واجعَل عملنا خالصًا لوجهك الكريم، وانفع بالشرح كما نفعتَ بالأصل، واطرح له القَبول، واجعله في ميزان الحسنات يوم الملمّات، آمين.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم

تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين

الفهرس